

جلسة 3.3 السلام وحل النزاعات- مرحلة ما بعد الصراع

روشان عباسوف

نائب رئيس مجلس المفتين في روسيا

إنّ روسيا بلد ذو حضارة أوراسيوية عظيمة، بلد سبق فيه الإسلام الأديان الأخرى. ويدلّ على ذلك أنّ إسلام قبائل البلغار جاء قبل تنصّر روسيا القديمة سنة 988 م بستة وستين عاما إضافة إلى أنّ أحد أقدم الجوامع يقع على أرض مدينة دربند بجمهورية داغستان الروسية والتي فتحها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم. وذكر ابن فضلان المدوّن العربي التاريخي في رسالته وهو يصف رحلة سفارة الخليفة العبّاسي جعفر المقتدر بالله إلى نهر الفولغا أنه قبل مجيء السفارة إلى أراضي البلغار - حيث تقع حاليا جمهورية تارستان - كان ما يقرب من خمسة آلاف من السكان قد اعتنقوا الدين الإسلامي وكان هناك عدد من المساجد، وبناءً على ما قدّم تدوينه في المخطوطات الروسية فإنّه سنة 986 م جاء وفد من البلغار إلى الأمير فلاديمير أمير كييف لعرض الإسلام عليه فسأل فلاديمير أعضاء الوفد عن خصائص دينهم فأجابوا عن سؤاله وشرحوا له ثوابت الدين الإسلامي. فاعترض الأمير على تحريم لحم الخنزير ومشروعية الختان وكذلك قال وهو يتحدّث عن تحريم شرب الخمر: "إنّ الخمر هو وسيلة الاحتفال عند الروس، لا نستطيع أن نعيش من دونها". هذا ما نستمدّه من المخطوطات القديمة ومهما كانت أسباب رفض فلاديمير للإسلام واختياره بعد سنتين المسيحية دينا لروسيا فإنّ هذين الدينين القريين اللذين يلتقيان في الأصول حدّدا معًا فيما بعد طبيعة خاصة للدولة الروسية.

ثمّ في العصور اللاحقة وحتى احتلال الجيش المغولي لأراضي البلغار كانت أسلاف الشعب التتاري الحالي جزءاً من المجتمع المسلم العالمي متعدد اللغات واللهجات. ومن منتصف القرن الثالث عشر حتى منتصف القرن السابع عشر في عهد إمبراطورية المغول التي هي أكبر دولة أقيمت على قارة أوراسيا في القرون الوسطى أصبح الإسلام مبدئاً فكرياً لا للبلغار فحسب بل ولشعوب أخرى على أراضي أوروبا الشرقية وسيبيريا الغربية.

كان الإسلام دينا رسمياً لحكّام إمبراطورية المغول ولكن ما كان هذا الوضع السائد يقتضي إجبار أصحاب الأديان الأخرى على الإسلام. فعلى سبيل المثال في عهد أقوى حكّام إمبراطورية المغول أوزبك خان وخلفائه ما كان من ضمن الحقوق المضمونة للمسيحيين هو حقّ التديّن فحسب بل وكذلك حقّ نشر دينهم بنشاط.

ورغم أنّ الروس كانوا يعرفون عن العالم العربي والإسلامي لفترة طويلة فإنّ التعرّف الحقيقي الذي ترك آثاره في تاريخ روسيا حدث في سنة 1406م حيث تمكّن أمير موسكو فاسيلي الأوّل من ردّ هجوم العدوان التتواني على روسيا بدعم جيش الخان التتاري شادبيك. ومنذ ذلك الحين ولاسيما من منتصف القرن الخامس عشر نشأت في موسكو وكاشير وسيريوخوف وكولومنا وزفينيغورود ويوريف-بولسكي ومدن أخرى مستوطنات تجاري الحياة فيها حسب العرف والتقاليد الإسلامية.

إن سقوط إمارة قازان سنة 1552م و ما عقبه من استعمار روسيا لأراضي المسلمين المترامية من نهر الفولغا حتى سيبيريا - وهي إمارة أستراخان وإمارة سيبيريا وإمارة قاسم وإمارة قرم - كل هذه الأحداث غيرت مسار تاريخ شعوب هذه المنطقة الشاسعة.

إن عملية توحيد روسيا حول موسكو اكتملت في القرن الخامس عشر بتكوين دولة روسية أخذت تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية مبدأ رسميا لها والتي تعتمد بدورها على الميراث البيزنطي العتيق فسرعان ما انطلقت محاولات القضاء على المبدأ الإسلامي بكل أشكاله مع نشر أفكار مكافحة التعدد الديني في المجتمع المسيحي. وبتولي سلالة رومانوف زمام الحكم تشدد موقف روسيا المسيحية ضد الإسلام بقرار القيصر في 16 مايو سنة 1681م حيث أصبحت الكراهية للإسلام منهج السياسة الداخلية للدولة. وفي عهد بطرس الأول كان ما يتعرض له الإسلام من سياسة الاضطهاد - والتي كانت عبارة عن التنصير الإجباري للشعوب التركية والقضاء على المساجد ورجال الدين- قد أثر في إقصاء الإسلام عن الحياة الاجتماعية عند الشعوب المسلمة.

وقد أجرت انتفاضة 1773-1775 التي شارك فيها بكثافة شعبا التتار والبشكير الملكة كاترين الثانية على تغيير موقف الدولة تجاه المسلمين، فكانت أول خطوة ذات معنى رمزي عميق في عهد جديد بالنسبة لمسلمي روسيا هي بناء مسجد في مدينة قازان. وبناءً على قرار الإمبراطورة بتاريخ 22 سبتمبر سنة 1788م تم إنشاء مجلس رجال الدين الإسلامي في مدينة أورينبورغ. ورغم الاضطهاد المستمر كان المسلمون يلبون دعوات الحكومة إلى مقاومة العدوان الخارجي كما كانت الحال لما أخذ جيش نابليون يدق أرض روسيا بخطى المتصر، وكثيرا ما كانت آنذاك كتائب الفرسان المسلمين تلقي الرعب في قلوب العدو الفرنسي ووفق بعض المصادر فإن أول كتيبة دخلت باريس بعد هزيمة فرنسا في هذه الحرب ومطاردة جيشها هي الكتيبة المكوّنة من الفرسان التتار والبشكير. وبعدها بقليل سنة 1814م دخل إلى باريس بخطى المتصر أول جنرال شيشاني في الجيش الروسي أليكساندر الشيشاني الذي صاحب الإمبراطور أليكساندر الأول الذي كان على رأس الجيوش الحلفاء.

ورغم مناقب المسلمين أمام الوطن فإن حكومة القيصر كانت تقدم التنازلات بصعوبة حتى سنة 1905م عندما صدر منشور عن حرية الاعتقاد والأديان في الإمبراطورية كان متأخرا لأن عدم ثقة المسلمين والمسيحيين على السواء بالنظام القيصري أدت إلى الثورة وإسقاط النظام سنة 1917م. وكانت البلشيفية تستغل حسن ظن المسلمين لتحقيق مصالحها فكانت تعد المسلمين ب"حق الإنتماء" وتنتهج تجاههم سياسة مختلفة عن السياسة إزاء الأديان الأخرى. إن البلشيفية أدركت مصلحة التعاون مع المسلمين سواء كانوا مسلمو الشرق أو مسلمو روسيا. وأصدرت منشورها المشهور مخاطبة "كل العمال المسلمين في روسيا والشرق" قائلة: "يا مسلمو روسيا، يا تتر الفولغا والقرم، يا قرغيز تركستان، يا أذربيجانيون وشيشانيون وسكان المناطق الجبلية في قوقاز، يا من هُدم جوامعهم ومعابدهم وكان دينهم وتقاليدهم القومية تحت قمع القيصر والظالمين من الروس اعلموا كلكم أن اعتقاداتكم الدينية وتقاليدكم ومدارسكم القومية ستكون حرة من الآن وإلى الأبد. هذا حقكم! اعلموا أن حقوقكم محمية بحماية الثورة لكونها حقوق شعوب روسيا، محمية من قبل كل من قام بالثورة من العمال والجيش والفلاحين". ولكن لم يكن هذا إلا كلاما وبعد سنوات قليلة من هذا المنشور كادت البلشيفية تقضي على رجال

الدين من المسيحيين والمسلمين واليهود والبوذيين. كانت هذه ضربة شديدة للمتدينين لأن الميراث القديم منذ العصور تمّ قلعه من حياة الناس ولا يتسنى إعادته من جديد.

إنّ عهد البلشيفية يعتبر إحدى الصفحات السوداء في تاريخ مسلمي روسيا لأنّه قضى على كلّ ما كان يُجمع خلال العصور ويُنقل للأجيال وكذلك تمّ تحويل المساجد والكنائس إلى المخازن والسقائف. ورغم كل هذا ما زال المسلمون أوفياء لوطنهم ويُذكر في هذا الصدد دور المسلمين في الحرب العالمية الثانية سنة 1941-1945م حيث أن أقوى دليل على اشتراك المسلمين في الحرب هو آلاف من المحاربين القدماء ويفوقهم عددا من رقدوا صرعى من المسلمين في معارك ما بين موسكو وبرلين وفي هذا الصدد لا بد أن نسوق بعض الحقائق فمثلا لا يعرف إلا قليل من المتخصصين أن عددا غير قليل من الشيشان والإنغوش كانوا من ضمن من دافعوا ببسالة وصمود عن قلعة بريست المشهورة في أوّل أيام الحرب. وقام مفتي روسيا آنذاك عبدالرحمن رسول بدعوة المسلمين إلى الدفاع عن الوطن في تلك الأيام العصيبة وقال في اجتماع رجال الدين الإسلامي في مدينة أوفاسنة 1942م : "ليس هناك مسلم إلا وكان ابنه أو أخوه أو أبوه يحارب الألمان ممسكا السلاح دفاعا عن وطنه. وليس هناك من لا يساعد بعمله في المصانع لأننا كمسلمين نذكر جيّدا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حبّ الوطن من الإيمان". وشكر ستالين بدوره مسلمي روسيا لجمعهم التبرّعات للإسهام في إنتاج الدبّابات المصفّحة وقال في رسالته القصيرة للمسلمين: "أشكركم على اهتمامكم بقوّات الجيش الأحمر وتقبلوا مني تحيّاتي والشكر من الجيش الأحمر. ستالين". وقد لعب هذا في سنوات ما بعد الحرب دورا ملحوظا في التحسّن النسبي لسياسة الدولة إزاء الدين.

ورغم كل ما ذكرناه فإنّ احتقار الدين أيّ حرمانه من الحقوق استمرّ حتى التسعينات من القرن العشرين فعلى سبيل المثال ما كان عدد المساجد في الاتحاد السوفيتي يبلغ المائة! وبالنسبة الآن في روسيا أكثر من سبعة آلاف مسجد. إنّ الله جلّ وعلى يقول: "ما عندكم ينفد وما عند الله باق" إنّ أهيار الاتحاد السوفيتي الذي كان يبدو حصنا حصينا جاء في الأغلب جرّاء موقفه تجاه الدين كما سبقه أهيار النظام القيصري.

ومع قيام دولة روسيا الحديثة بدأ المسلمون يفتقون روحيا فبعد الصحوة القومية والدينية الهائلة في التسعينات جاء دور بناء المساجد والهيئات التعليمية ونشأة الخدمات الاجتماعية.

نُحِضت روسيا خلال السنوات الأخيرة باطراد واستطاعت أن تردّ مكانتها في المعادلة الدولية وأن تعزّز إمكاناتها الاقتصادية والثقافية والروحية. ومن أبرز إنجازات روسيا الحديثة انضمامها إلى منظمة المؤتمر الإسلامي كدولة مراقبة ما أدّى إلى تعزيز علاقتهما التقليدية مع العالم الإسلامي.

إنّ روسيا بلد من الصعب العثور على ما يشبهها من الدول من ناحية كثرة القوميات وتعددتها فإنّ ما يقارب مائة قومية وجدت على أرض روسيا خلال العصور الطويلة وللإسلام مركز مهم بين مختلف الأديان المنتشرة بين شعوب روسيا. ويحتلّ الإسلام المركز الثاني من حيث التعداد حيث يبلغ عدد المسلمين رسميا عشرين مليون مسلم. ومسلمو روسيا جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي رغم بعدهم الجغرافي عنه فضلا عن كونهم وطنيين يشاركون في حياة بلدهم بنشاط.

فالشخصيات البارزة مثل موسى جار الله بيكليف وشهاب الدين المرجاني ورضاء الدين فخر الدين كانوا من أبناء الأمة الإسلامية في روسيا.

وقد ساهم المسلمون بشكل كبير في تشكيل روسيا كدولة ولا يزالون جزءاً مشكّلاً لدولة روسيا فمما قاله الرئيس بوتين بهذه المناسبة: "إنّ الإسلام يعتبر بحق جزءاً لا يتجزأ من الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية في روسيا وأؤكد أنّ الدولة تقدّر النشاطات المثمرة للمنظمات الإسلامية وتضمن لمواطنيها إمكانية تنفيذ تعاليم دينهم". وفي هذا الصدد من المهم أن نعرض لكم بعض أنشطة مجلس شورى المفتين الروسي وهو إحدى أكبر المنظمات الإسلامية في روسيا التي تتبعها الجمعيات الدينية في كل أنحاء روسيا.

إنّ من أهمّ أنشطة مجلس شورى المفتين هو مراقبة مُجريات الأمور في الأقاليم، تقديم الحلول العاجلة للمشاكل، تقديم المساعدة للإدارة الدينية لمسلمي روسيا وللجمعيات الدينية في إقامة علاقات العمل مع المؤسسات الحكومية. إننا نقوم باستمرار بجولات في الأقاليم كي نتعرّف عن قرب على حياة المسلمين هناك، نزور الجمعيات الدينية المحلية ونتحدّث مع أئمّة المساجد وروادها

ومن الضروري في كل جولة أن نلتقي مع رجال الكنيسة والأديان الأخرى ونمد جسور علاقات الصداقة بين أصحاب تلك الأديان من جهة والإدارات الدينية والمؤسسات الإسلامية المحليّة من جهة أخرى، ونقوم ببحث نتائج الجولة مع رؤساء المحافظات مما يُمكننا من حل المشكلات الموجودة في الجمعيات الدينية.

كان في روسيا حتى سنة 1991م حوالي 100 مسجد ووفقاً للقوانين السوفيتية كانت المساجد تحت إشراف الإدارات الدينية من مدينتي أوبا و"مخاج قلعة" وأصبح من الواضح مع مرور الوقت أنّ وجود الإدارة الدينية في موسكو شيء لا بدّ منه وكذلك أنّه من الممكن حل عدد من القضايا المهمة بالتعاون مع باقي الإدارات الدينية وهذا ما أدّى إلى تأسيس مجلس شورى المفتين الروسي سنة 1996م.

وكما يشارك المجلس في النشاطات الدينية والسياسية والثقافية في المجتمع فكذلك يقوم المجلس بالعمل المشترك مع الزملاء في خارج البلاد. ونريد أن نتطرّق إلى مجال التعاون مع باقي الأديان في بلادنا وخاصّة مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. إنه من المؤكد أنّ الأوضاع التاريخية والمساحة الجغرافية التي تعایش فيها الإسلام والمسيحية خلال القرون الأربعة عشر الأخيرة أدّت إلى حتمية التعاون الوثيق بينهما. ونستطيع القول بأنّ الأرثوذكسية والإسلام على السواء لهما مقدور تاريخي كبير للتعايش والحوار البناء.

وقد رحّبت الحكومة الروسية بمبادرة تأسيس مجلس أديان روسيا وانضمّ إلى هذا المجلس رجال الأديان الأربعة وهي المسيحية والإسلام واليهودية والبوذية وذلك بغرض توحيد جهود التربية الروحية للمجتمع ونشر القيم الروحية في المجتمع وإيجاد التوافق والاستقرار، وإجراء الحوار مع السلطات الروسية والمؤسسات الخارجية. وكذلك من أهدافه منع دغدغة المشاعر الدينية في المجتمع بهدف إضرام الفتن العرقية.

ومن المؤسسات التي تمّ تأسيسها من أجل تطوير الحوار بين الأديان نذكر أيضاً:

لجنة المجلس الاجتماعي للعلاقات بين القوميات وحرية الاعتقاد

مجلس التعاون مع المنظمات الدينية التابع للرئيس الروسي.

مجالس خبرة ومجالس استشارية تابعة لمؤسسات الحكومة وأخرى تابعة لرؤساء الأقاليم. ومع الأخذ في الاعتبار هذا التعاون منذ سنوات طويلة مع السلطات نستطيع أن نؤكد أن رأي المسلمين يؤخذ بعين الاعتبار عند اتخاذ أي قرار مهمّ. وسمحوا لنا أن نعرض لكم بعض فعالياتنا التي نستضيف فيها أصحاب الأديان الأخرى:

أولاً "خيمة رمضان"

يتمّ نصب ما نسميه بخيمة رمضان سنويا في المسجد على جبل "Поклонная" الذي بني تكريماً لمن لقي حتفه من المسلمين في المعارك ضدّ الفاشية وذلك لإفطار الصائمين خلال هذا الشهر المبارك وتجمع هذه الخيمة أصحاب القوميات والأديان المختلفة وهذا إن دلّ فإنّما يدلّ على روح التسامح بين القوميات والأديان ونعرّف الضيوف بتاريخ الإسلام وأخلاقياته وخصائصه تشجيعاً لهم على إعادة النظر في صورة الإسلام المشوّهة من قبل الإعلام.

ثانياً: مسابقة الشعر على مستوى روسيا تحت عنوان "محمد رحمة للعالمين"

وبمناسبة المولد النبوي الشريف نقوم سنويًا بإجراء مسابقة شعرية تحت عنوان "محمد رحمة للعالمين" حيث ننشر الإعلانات في الإنترنت والإعلام ونرسلها إلى الإدارات الدينية في الأقاليم كي يستجيب لها من لديه نبوغ في الشعر. إنّ عدد المتسابقين يزداد عاما بعد عام كما يزداد جودة الأشعار التي تقدّم للمسابقة ويشارك في المسابقة عدد كبير من الشعراء المحترفين والأدباء ويحدث أن يفوز في هذه المسابقة المسلمون وأصحاب الأديان الأخرى على السواء ممّا يؤكد اهتمام المجتمع بشخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم! ومن أعمالنا الخيرية مساعدة المحتاجين وتحت رعايتنا الدائمة عدد من دور الأيتام ومئات من المحاربين القدماء والمعاقين في موسكو والأقاليم.

ونريد أن نخصّ بالكلام أنشطتنا مع السجناء حيث لا نساند هؤلاء الناس روحيا فحسب بل ونقيم الصلاوات ونلقي الدروس لهم في السجون ونساهم في بناء المساجد في السجون باستمرار كمحاولة منا أن نشعر السجناء أنّه ليس من المتأخر أبدا العودة إلى الحياة الطبيعية.

ونقوم بالتنسيق مع أصحاب الأديان المنتشرة في روسيا بتنظيم بطولات رياضية، فعاليات ثقافية ومنتديات شبابية بغرض غرس مبادئ الاحترام المتبادل في شباب روسيا.

ويشارك أصحاب الأديان المختلفة في أنشطتنا الكبيرة ومنها المسابقة القرآنية الدولية في موسكو والتي تجمع القراء من أكثر من ثلاثين دولة ومنها كذلك معرض منتجات اللحم الحلال "Moscow Halal Expo" والذي يتّضح من خلاله الطلب المتزايد على منتجات الحلال.

ورغم الفروق الواردة بين تعاليم الإسلام والمسيحية فإنّنا متفقون في مكافحة الفساد الأخلاقي وأمراض المجتمع الحديث ونستطيع أن نجد بسهولة نقاط التماس مع رجال الكنيسة ورجال الأديان الأخرى ونقوم معهم بأنشطة

مشتركة ولكن التعاون الإيجابي هذا لا يظهر بشكل دائم في الإعلام وخاصة في الإعلام الذي يتم نشره على مستوى البلد.

ندعو رجال مختلف الأديان إلى مواصلة وتعزيز التعاون بين الأديان والشعوب وأما الإعلام فندعوه إلى الإسهام في نشر السلام والرفق والاحترام المتبادل في بلداننا.

وختاماً نودّ القول بأنّ حوار الأديان يُسهّم في تعايش مختلف التقاليد الدينية والثقافية في قالب تاريخي واحد ونحن على يقين من أنّ ما اكتسبته روسيا خلال القرون الطويلة من خبرة تعايش الأعراق سوف يحتاجه العالم بأجمعه لأنّ روسيا شهدت مراحل مختلفة من تعايش الأديان ممّا أدى إلى وضع نموذج لانسجام العلاقات بين الأديان وهذا يشهد مجدداً على الخبرة التاريخية الفريدة للتسامح في روسيا.